

## تأثير الثقافة العربية الأندلسية في الفكر الأوربي.

أ.بصالح خديجة

قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة عين تموشنت.

### تأسيس الثقافة العربية الأندلسية وأثرها في الغرب:

لقد شكلت الثقافة العربية الأندلسية -على مدار فترة من الزمن- حضارة عربية إسلامية، تميزت بالعمق والشمولية والديمومة في عصور لم تكن بقيت الحضارات قد تكونت، ومن هنا كان تأثيرها البين في هذه الحضارات ولاسيما الأوربية -موضوع بحثنا- وقبل الإشارة إلى القنوات أو المعابر التي استندت إليها أوربا في انطلاقة نهضتها، وأخذ العلوم المتقدمة لدى العرب، نود التذكير بان الاحتكاك الأول بين العرب وأوروبا كان في بلاد الشام ومصر، أثناء فتح هذه الأمصار من قبل الجيوش العربية بعد تحولها إلى الإسلام وإقصاء الروم والبيزنطيين عن هذه البلاد واستقرارهم فيها، إذ لم يترك هذا الاحتكاك أثره بشكل جلي، كما حصل في الاتصالات اللاحقة بين العرب وأوروبا، ويأتي في مقدمة المعابر وأهمها الأندلس التي فتحتها العرب سنة 91 للهجرة (710 م) و بقي العرب فيها، وأسسوا دولة قوية مرت بمراحل عدّة، من حيث القوة والضعف والانتساع والتراجع، ولم ينتهي الوجود العربي في الأندلس بسقوط غرناطة سنة (897 هـ / 1492 م) إذ استمر حتى أوائل القرن السابع عشر الميلادي من خلال الموريسكيين الذي بقوا في اسبانيا، ومن هنا نستطيع القول:

- أن الوجود الفعلي للعرب بقي قائما في شبه الجزيرة الايبيرية على مدار تسعة قرون من الزمن، وهي فترة كافية لتأثير العرب في الأسبان والبرتغال، وما نود الإشارة إليه هنا هو أن اسبانيا كانت معبرا انتقلت منه الحضارة العربية إلى أوروبا وأمريكا، إذ استطاعت أن تتوسع في اتجاهين:

**الاتجاه الأول:** كان نحو القارة الأوروبية عندما أقامت إمبراطورية ضخمة هيمنت على جزء كبير من أوروبا في ظل الأسرة النمساوية Casa de los Austries.

**الاتجاه الثاني:** كان نحو أمريكا التي تم اكتشافها في العام نفسه الذي سقطت فيه غرناطة (1492 م) في أيدي الملكين الكاثوليكين: فرديناند الخامس ملك أرغون، وإيزابيل ملكة قشتالة وليون.

ولم تمض سنوات حتى تمكنت اسبانيا والبرتغال من اقتسام ملك الشطر الأعظم من القارة الأمريكية من كاليفورنيا من شمال القارة إلى أرض الغاز في أقصى الجنوب.

أما المعبر الثاني الذي ساهم في انتشار الثقافة العربية في الأواسط الأوربية يتجلى في فتح جزيرة صقلية من قبل العرب سنة 827م قادمين إليها من تونس -التي كانت خاضعة يوما للدولة البيزنطية- وبقيت تحت الحكم العربي إلى أن دخلها النورمانديون سنة 1091م، ومن صقلية تم نقل العلوم العربية إلى جنوب أوروبا ولاسيما إيطاليا وفرنسا.

**أما المعبر الثالث:** يتجلى في فسحة الحروب الصليبية التي امتدت على مدار قرنين من الزمن، أسهمت هذه الحروب الطويلة بين العرب والأوروبيين المشاركين فيها -في مزيد من التعارف وتبادل الفائدة بين الجانبين<sup>(1)</sup>.

وقبل الشروع في ذكر المجالات المختلفة التي أثرت فيها الثقافة العربية الأندلسية في نهضة الغرب، فانه من الحكمة التوقف عند عامل هام وأساسي في عملية التأثير هذه ألا وهو عامل اللغة -اللغة العربية- وما كانت تحتله من مكانة رفيعة، والدور الكبير الذي قامت به في تك الحقة، إذ انصرف إليها الجميع لما تمتعت به من أهمية، وعلى مختلف الصعد الأدبية والفلسفية والعلمية وغيرها، وإقبال الكثيرين ولاسيما غير العرب على تعلم هذه اللغة الجديدة، ويشهد عليه الفارو القرطبي (Al-Varo cardobe) عندما خاطب أبناء الاسبان مبديا تخوفه من انتشار العربية وتحول معظم أبناء بلده إليها، فيقول: "إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا، وأين تجد الآن واحدا - من غير رجال الدين- يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة؟ يا للحسرة! إن الموهوبين من الشبان

النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها يؤمنون بها و يقبلون عليها، وهم ينفقون أموالا طائلة في جمع كتبها، ويصرخون في كل مكان بأن هذه الآداب حديرة بالإعجاب....." (2).

إن ذبوع اللغة العربية وانتشارها كان كسريان النار في الهشيم، أما في المناطق التي لم تصلها اللغة العربية، أو كان من الصعب أن يتعلم أنباؤها هذه اللغة الجديدة، فقد دفعت جودة الإنتاج المدون بها وسموّه الباحثين والمفكرين إلى ترجمة هذه الآثار الرائعة إلى اللغات الأخرى. وهكذا فإن ازدهار الترجمة وإقبال الطلبة والمترجمين على المؤلفات العلمية العربية الأندلسية أسهم إسهاما قويا في تأسيس الحركة الفكرية التي ظهرت في الغرب في أواخر القرون الوسطى.

## 1- مجالات تأثير الثقافة العربية الأندلسية في الغرب:

1- مجال الأدب والفلسفة: إن أول من أشار إلى تأثير الشعر العربي في الشعر الغنائي الأوروبي الأب اليسوعي الاسباني خوان أندريس "الذي يؤكد" أن قواعد التقفية التي اتبعها الشعر الشعبي اسبانيا كان أو بروفانسيا وأساليب صياغة الشعر الحديث ونظمه إنما هي مأخوذة عن العرب" (3) وقد أدلى أندريس بكثير من الآراء والأحكام حول فضل العرب على الحضارة الأوروبية و ذلك في كتابه القيم الذي أصدره في سبعة مجلدات وباللغة الإيطالية والموسوم بـ (أصول كل الآداب وأحوالها الراهنة)، ومع أن رد فعل الباحثين المعاصرين على آراء "خوان" كان عنيفا، فإن البارون "فون شاك" صاحب كتاب "الشعر العربي في الأندلس و صقلية" يميل إلى قبول نظرية التأثير العربي في الشعر الغنائي الأوروبي.

وبعد ما جاء "خوليان ريبيرا" سنة 1912م ليحدث ضحية كبيرة في عالم الاستشراق عندما قال إن الشعراء البروفانسيين الفرنسيين (شعراء التروبادور) وهم أول من عالج الشعر الغنائي في أوروبا .

لم يفعلوا أكثر من تقليد نماذج الوشاحين والزجالين الأندلسيين الذين سبقوهم بقرنين من الزمن، وهكذا مضى الباحثون والمستشرقون بعد "ريبيرا" يمارسون جهودهم في متابعة نظريته حيث قدم "أ.ر. نيكول" عام 1933 عملين كبيرين:

1- نشر ديوان ابن قزمان كاملا بالحروف اللاتينية.

2- بحث عن الشعر الغنائي على جانبي جبال البرنيه في حدود سنة 1100م.

وقام المستشرق الانجليزي "س.م. شتين" بنشر بحث بعنوان: الخرجات الاسبانية في الموشحات العربية، إذ كان من المعروف أن الوشاحين اليهود الأندلسيين كانوا مقلدين للوشاحين العرب.

لقد أجمع مؤرخو الآداب الأوروبية على أن أقدم شعر غنائي عرفته أوروبا هو الشعر الذي نظمته شعراء التروبادور البروفانسيين. من أهم الشخصيات العربية التي تركت أثرا واضحا على الثقافة الأوروبية: "ابن حزم القرطبي" صاحب المؤلف الشهير (طوق الحمامة) الذي سرت أفكاره في الحب وماهيته وأنواعه في الحياة العاطفية الأوروبية على نحو واسع، وخير ما يؤكد ذلك ما ذكر "غومس غارسيا" في معرض رده على الذين أنكروا أثر العذرية العربية في الأدب الأوروبي فيقول: "إن شعراء الإسلام من بغداد إلى مرسية، أقاموا قرونا ثلاثة يتفننون بالحب العذري، ويحللون، ويرسمون له المناهج، تلك هي الحركة التي انتقلت من قرطبة إلى بروفانس (جنوب فرنسا). لتلهم البروفانسيين ما سموه بالعلم البهيج، والتي أوحى إلى "جويدا جينزلي" أستاذ (دانتي) أسلوبه العذب الجميل..." (4).

إن ابن حزم القرطبي قيد في كتابه -أشكال الحب بحلولها ومزها- هذه الأشكال التي جاء الشعر البروفانسي الأوروبي وبعد قرن من الزمن ليتعرض لها، وإن ما تضمنه هذا الشعر من تمجيد للمرأة وخضوع لها ليس له أي جذور في الشعر الغنائي الأوروبي الذي لم يعرف قبل القرن الثامن عشر الميلادي، ولم يبق أمام النقاد والمؤرخين إلا أن ترد هذه الجذور إلى الأدب العربي عامة والأندلسي خاصة، والتي كان يشكل فيها غرض الغزل جوهره ومركز تطوره.

ويمكن للباحث أن يعرض لأثر ابن حزم في الغرب و ذلك من خلال كتاب "هوسا" المعنون: "شعراء التروبادور ومجالس الحب" حيث نجد آراء كثير من الشعراء الذين تعرض لهم "هوسا" في كتابه أمثال: سانت ديديه، دي كيستان أرنودي ماري...

جاءت صدى وتكرار لآراء ابن حزم.

لقد كان لكتاب "الطوق" نفوذ قوي في نشأة الشعر الغنائي الأوروبي، وهو المصدر لكثير من الموضوعات والمصطلحات القائمة في شعر التروبادور، ومن أول هذه الموضوعات تردد ذكر ما يدعى (cardador) الذي يقابل في الشعر الغزلي العربي (الرقيب) وللدوق جيوم التاسع مقطوعة يقول فيها:

اني أنصحكم أيها الرقباء وأقول لكم:

وليكونن من العقلة أن تصدقوا ما أقول!

ليس هناك رقيب لا تدركه سنة من النوم بين وقت وآخر.

ومقارنة بسيطة مع ما أورده ابن حزم في باب الرقيب من كتاب الطوق<sup>(5)</sup> نجد ثمة تشابه كبير وغريب.

وثمة أمر آخر في معرض الحديث عن تأثير الشعر العربي الأندلسي في نشأة الشعر الغنائي الأوروبي ولاسيما شعر التروبادور، هو أن سحر الشعراء الجوالين هؤلاء، سحر دائم لم ينقطع بمرور الزمن، حتى أن دارس الشعر الحديث في القرن العشرين يستطيع تلمسه عند من سماه "إليوت" بالصانع الأمهر وهو الشاعر العظيم "إزرا باوند" شيخ إليوت". فقد فتن "باوند" بعالم التروبادور.

وقد قدم مجموعة مهمة من الدراسات التي خصصها لعدد من شعراء التروبادور وجمعها في كتاب خاص بهم حمل عنوان "روح الرومانس" وأفضل ما يلخص صنيع "إزرا باوند" ما جاء في كتاب "ستيوارت ماكدوغل Stuart Mc Dougal" إذ يقول: "لقد اكتسب باوند من خلال عمله مع البروفانس موضوعات وتقنيات أصبحت جزءا هاما من عمله ككل، فهو يمضي من الترجمات الحرفية إلى الترجمات المجددة إلى القصائد الأصلية التي تطور موضوعات بروفانسية وتستخدم أشكالاً بروفانسية"<sup>(6)</sup>.

إن روح الشعر العربي الأندلسي ظلت ماثلة في الشعر الغربي، وقد أدى شعراء التروبادور الذين كانوا أول من نهل من ينبوع الأندلسي، دور الوسيط الملهم عند شعراء الغرب وبالأخص إزرا باوند.

**2- مجال الفلسفة والفكر:** إن الحديث في هذا المجال يتجه إلى الفيلسوف "ابن رشد" الذي نال اهتمام كبار الكتاب الأوروبيين حيث يقول بصدد "خوان فيرنيت"، "إذا كان القرن الحادي عشر (5 هـ في الأندلس) هو عصر كبار علماء الفلك فإن القرن الثاني عشر (6 هـ) كان بالدرجة الأولى عصر الأطباء والفلاسفة وقد برع "ابن رشد" في كلا المجالين، وبلغ من تأثير أعماله في الغرب، حدا أن اعتقد العالم الغربي في القرن الخامس عشر (9 هـ) أن نور المعرفة لم يكن يصور من المشرق، بل من الأندلس، وقد أورد الشاعر الإيطالي دانتي ذكره (الجحيم، الأنشودة الرابعة، 144) مقرونا بتقريظ، (وشاهدت) ابن رشد الذي ألف الشرح الكبير.... ويضيف المؤلف نفسه "ولعل ابن رشد (520 - 595 هـ / 1126 / 1198م) وهو<sup>(7)</sup> الأندلسي الذي كان له أكبر تأثير في الفكر الإنساني عبر التاريخ..."

لقد صرح الفيلسوف الفرنسي ارنست رينان أنه عندما قرر الملك لويس الحادي عشر تنظيم التعليم الفلسفي سنة 1473 كان المذهب الذي أوصى به هو مذهب أرسطو وابن رشد<sup>(8)</sup>.

وقد قام ميخائيل الاسكتلندي بترجمة كتب ابن رشد إلى اللاتينية بمدرسة مترجمي طليطلة، وكان أول من عرّف علماء الأمم اللاتينية بابن رشد، وقد سار على نهجه هرمان الألماني.

**2- مجال علم الفلك:** لقد أورد تودروف في كتابه "فتح أمريكا" وهو أن كولومبس قد استفاد في رحلاته الاستكشافية من معلومات فلكية استقاها من بعض العلماء العرب إذ كان هناك اعتقاد سائد في عصره وهو أن الأرض كروية، وإن لم يكن هناك دليل يؤكد ذلك، وقد استند كولومبس إلى رأي "الفرغاني" الفلكي العربي صاحب كتاب (المدخل إلى علم هيئة الأفلاك). وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية قبل ظهور كولومبس وتفكيره بحوالي 300 عام، كما استند إلى علم الفلك العربي عندما حوَّصر من قبل الهنود الحمر على ساحل جامايكا حيث هددهم بسرقة القمر وذلك عندما عرف بوقوع خسوف<sup>(9)</sup>.

كما كانت الجغرافيا العربية مهمة جدًا، إذ شكل بعضها الأساس لدراسة هذا العلم في أوروبا، ويأتي في مقدمة الجغرافيين العرب: الاصطخري والادريسي والقزويني، وياقوت الحموي.

**3- مجال العلوم التطبيقية:** في هذا المجال كان العرب سباقين في استعمالهم لنظام الترقيم بدلا من حساب الجمل الذي كان سائدا في العصور القديمة، فقد اطلع العرب على حساب الهنود وأخذوا عنهم نظام الترقيم، إذ كان لديهم أشكال مختلفة للأرقام، فاختاروا منها

سلسلتين، عرفت أحدهما بالأرقام الهندية وهي المستعملة في البلاد العربية، وعرفت الثانية بالأرقام الغبارية، وهي المستعملة في بلاد المغرب العربي.

ويعود الفضل في نشر هذه الأرقام واستعمالها إلى العالم العربي المشهور "محمد بن موسى الخوارزمي"، وهو أول من ذكرها في مؤلفاته، وكتبه في الحساب، وقد نقل كتابه في الحساب إلى اللاتينية وظل مرجعا للعلماء الحاسبين، كما بقي علم الحساب نفسه قرونا معروفا باسم "الغوريثمي" نسبة إلى علمنا العربي، ويرجع الفضل للعرب أيضا في ابتكار الصفر حيث كان الهنود يستعملون الفراغ للدلالة على الصفر ومن ثم استعمله الأفرنج متطورا إلى (chiffre) ومن ثم (zero)، كما ابتكر العرب علامة الكسر العشري والنسبة العددية والهندسية وغيرها<sup>(10)</sup>، وفي هذا الإطار يشار أيضا إلى اكتشاف العرب لعلم الجبر، وإن كانت أصوله معروفة من زمن طويل، كما يرجع لهم الفضل في تطبيقه على علم الهندسة، وأحسن دليل على ذلك الكتاب الذي ألفه "محمد بن موسى الخوارزمي" موطأ بأمر من الخليفة المأمون، وهذا الكتاب الذي اقتبس منه الأوروبيون فيما بعد معارفهم الأولى لعلم الجبر<sup>(11)</sup>.

**4- مجال الطب:** كانت للأندلسيين جهودا وإنجازات علمية قيمة دفعت بالطب إلى الأمام وكان شغفهم بالطب كبير، حيث عرفت المدن الأندلسية المختلفة أطباء عدة من بينهم "ابن واد الطليطلي (1007-1067م) إذ عكف على دراسة كتب جالينوس حتى وعاهها ومن ثم درس كتب أرسطو طاليس وغيره من فلاسفة اليونان، وكان نبوغه منصبا على دراسة الأدوية ومعرفة خصائصها. وكان بارعا في طب العيون. وقد عرف "ابن واد لدى الأوروبيين" بـ"ابن ويفيت" لشهرته العلمية ومكانته الاجتماعية ولا ننسى "ابن سينا" في هذا مجال الطب الذي سمي بالرئيس، وكان أول من جعل الأدوية حبوبا ولبسها بالسكر ليسهل تناولها، وقد اهتم بالمعالجة النفسية بالإضافة إلى العلاج بالأدوية، وإلى جانب هؤلاء العلماء نذكر أيضا "ابن النفيس" الذي كان أول من اكتشف الدورة الدموية وأكد وجودها، إضافة إلى "ابن زهير الاشبيلي" الذي اكتشف حشرة الجرب، وهو أول من شخص أمراض التهابات الجلدية، أما "أبو القاسم الزهراوي" فقد ابتدع الحياطات الجراحية.

وقد تم تأسيس أول صيدلية في عهد أبي جعفر المنصور في القرن الثامن الميلادي وظل تأثير العرب في الغرب في الصيدلة قائم حتى القرن التاسع عشر، كما أن اكتشاف طريقة التخدير الشامل تعود إلى العرب الذين خالفوا طريقة اليونان والرومان والهنود التي كانت تقوم على تسكير المريض للتخفيف من آلامه.

أما علم البصريات فيعد بحق علما عربيا لأن العرب هم أول من اهتم بطب العيون، ويعد كتاب "حنين إسحاق" أول كتاب لطب العيون. وهكذا يتضح ذلك الإسهام الحضاري العظيم الذي قدمته الحضارة العربية للحضارة الإنسانية ويتجلى ذلك في قول "جوزيف ماك كيب": إن هذه الأخبار وإن كانت مختصرة جدا، فإنها كافية للدلالة على أن عرب الأندلس هم الذين وضعوا فاتحة هذه المدينة الجديدة في أهم نواحيها<sup>(12)</sup>.

إن الثقافة العربية الأندلسية المتعددة والمتنوعة بتأثيرها، قد توسطت ما بين الوطن العربي وأوروبا تنشر المعرفة في أنحاء أوروبا كافة، ممهدة بذلك الطريق أمام النهضة الغربية، وذلك جد طبيعي لأن فكرة الحضارة الإنسانية هي نتاج المسعى الإنساني في العصور كلها.

#### الهوامش

1. سهر القلماوي وآخرون: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، 1970، ص 5-6.
2. حسين مؤنس: تاريخ الفكر الأندلسي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955، ص 486/485.
3. المرجع نفسه، ص 535.
4. غومس غارسيا: الشعر الأندلسي، تر: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ص 87.
5. ابن حزم: طوق الحمامة، تح: حسن كامل الصيرفي، تقدم إبراهيم الأبياري، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1964، ص 53/51.
6. فرنيت خوان: فضل الأندلس على ثقافة الغرب، تر: نهاد رضا، اشبيليا للدراسة و النشر والتوزيع، دمشق 1997، ص 75.
7. المرجع نفسه، ص 86/87.
8. رينان أرنت: ابن رشد والرشدية، تر: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية القاهرة، 1957، ص 245.
9. ت. تودوروف: فتح أمريكا، مسألة الآخر، تر: بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة 1992، ص 32/25.
10. سهر القلماوي وآخرون: أثر العرب و الإسلام في النهضة الأوروبية، ص 216/218.
11. لويون غوستاف: حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1945، ص 470.

12. مايك كيب جوزيف: حضارة العرب في الأندلس، تر: تقي الدين الهلالي، بغداد 1950، ص 56.